احترام الصغير للكبير ورحمة الكبير بالصغير

قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف حق كبيرنا، وليس منا من غشنا، ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه**» رواه الطبراني[1].

أمورٌ هامة في الحياة يدعو الإسلام إلى مراعاتها وصيانتها والحفاظ عليها ويجعل التفريط فيها ليس من أخلاق المسلمين، ولا على سنتهم أو ليس من طريقة الإسلام الكاملة لقول الرسول ﷺ: «**ليس منا**» إنما هو على سبيل التشديد في الوعيد، ولا يراد به حقيقة الخروج من الإسلام، وأول هذه الأمور الهامة: الرحمة بالصغير، فالإسلام دين الرحمة بوجهٍ عام، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[2]، وقال: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[3].

وإذا كان الإسلام هو دين الرحمة بوجهٍ عام، فإنَّ تلك الرحمة تتأكد بالنسبة للضعيف والصغير بصفةٍ خاصةٍ، لحاجة الصغير إلى الرفق وإلى الرحمة ولأنه بحاجةٍ إلى رحمة الكبير به، وأما القسوة على الصغير فتخرج صاحبها عن خلق الإسلام. وكما ينادي الإسلام بعطف الكبير على الصغير ورحمته به، فإنه أيضاً دعا إلى احترام الصغير للكبير، وأن يعرف الصغير للكبير حقه المقرر الواجب الأداء، فعلى الصغير أن يوقر الكبير ويحترمه، وتضييع حق الكبير والتنكر لفضله دلالة على ضياع الأدب وضياع الوفاء وضياع الحقوق.

---

(1) أخرجه **الطبراني** في «المعجم الأوسط» (الحديث: 4809).

(2) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4941)، أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1924)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 16).

(3) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4942)، أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1923)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 310).

روي أنَّ شيخاً كبيراً جاء يريد النبي ﷺ، فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**»[1].

والمراد بالتوقير: هو الاحترام والتعظيم، وأن يعرف الناس للكبير قدره ومكانته. بل إنَّ إكرام الكبير يعتبره الإسلام إجلالاً لله وتعظيماً، فيقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «**من إجلال الله إكرام ذي الشيبة للسن**»[2]، بل إنَّ مثوبة هذا العمل الإنساني وهذا الأدب والتوقير لا تذهب سدى، بل إنَّ الله تعالى يحفظ لصاحب المروءة مروءته، ولصاحب الجميل جميله بحيث يقيِّض الله له من يكرمه عندما يبلغ مبلغ هذا الشيخ الكبير الذي وقره، قال رسول الله ﷺ: «**ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض له من يكرمه عند سنه**»[3]، بل إنَّ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوضح أنَّ الأنبياء أنفسهم مأمورون بهذا وبالدعوة إلى احترام الكبير، قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم**»[4] فإذا كان الأنبياء مأمورين بذلك فما بال الناس؟! لا شك أن توقير الكبير ضربٌ من الشكر وعدم التنكر لفضله؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**لم يشكر الله من لم يشكر الناس**» فالإسلام يدعو إلى احترام الكبير وتوقيره واحترام صاحب الفضل وشكره، بل إن شكره يدعو إلى دلالةٍ على شكر العبد لربه الذي أجرى النعمة على يد هذا الإنسان.

وتوقير الكبير يتمثل في احترامه والاستجابة إلى توجيهاته ونصائحه، وبالشكر على ما أسداه من فضلٍ أو عمل، وبأن نقدمه في المشي وفي الكلام، فقد قدم وفد جهينة على رسول الله ﷺ فتقدم غلامٌ ليتكلم، فقال له رسول الله ﷺ: «**صه فأين الكبير؟**».

وعندما أقبل سعد بن معاذ على مجلس الرسول ﷺ، قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوم سعد: «**قوموا إلى سيدكم**»[5] وهذا من قبيل التوقير والإكبار.

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4943).

(2) ذكره القيسراني في «تذكرة الموضوعات» (الحديث: 721).

(3) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2022).

(4) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (الحديث: 2/ 65).

(5) أخرجه البخاري في (الحديث: 3043) و(الحديث: 3804)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4571) و(الحديث: 4572)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 5215)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 856).

وعندما دخل على عمر بن عبد العزيز أحد الوفود، وتقدم غلامٌ من بينهم ليتكلم قال له: أكبر يا غلام أكبر، ارجع وليتكلم من هو أَسَن منك.

ولا حرج أن يتكلم الصغير باسم قومه، ولكن عندما لا يوجد من بين الكبار من يستطع إحسان الكلام.

ثم حذر الحديث بعد ذلك من الغش: «**وليس منا من غشنا**»، وفي الحديث: «**ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به**»[1] والغش محرم سواءٌ كان في البيع أو الشراء أو في غير ذلك من ضروب الحياة، وفي الحديث: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[2]، ثم يوضح الحديث تضامن المؤمنين وتآلفهم: «**ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه**» وما ذلك إلا لأن المؤمنين أخوةٌ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وهناك بعض روايات أخرى تضيف تأكيداً لحقوق الكبير والعالم مثل: «**ليس من أمتي من لم يرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**»[3] ومثل: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**» وفي هذا دعوة إلى تعاون المجتمع المسلم على الخير والبر والمعروف، وما فيه سعادة الفرد والمجتمع دنيا وأخرى.

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 1941).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 361) و(الحديث: 4706)، وأخرجه الدارمي في «سننه» (الحديث: 2/ 324)، وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث. 6/ 41).

(3) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 323).

مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم

عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشبوا وسقوا ووزعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه دين الله ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقل هدى الله الذي أرسلت به**»[1] رواه البخاري.

يضرب هذا الحديث مثلاً لأنواع الناس بالنسبة لطلب العلم فيشبههم بالأرض، ومعنى هذا التمثيل في الحديث أنَّ الناس كالأرض ثلاثة أنواع: **فالنوع الأول** من الأرض ينتفع بالمطر، فتحيا بعد أن كانت ميتة وتثبت الكلأ فينتفع به الناس والدواب، والنوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه ويهدي قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع، **والنوع الثاني** من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع به الناس، وكذلك النوع الثاني من الناس لهم قلوبٌ حافظة لكن ليست لهم أذهانٌ ثاقبة ولا رسوخ لهم في العلم يستنبطون به المعاني والأحكام وليس لهم اجتهاد في العمل به، فهم يحفظون حتى يجيء أهل العلم للنفع والانتفاع، فيأخذونه منهم. فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم. **والثالث** من الأرض: هو السباخ التي لا تنبت فهي لا تنفع بالماء ولا تمسكه لينتفع به غيرها، وكذلك الثالث من الناس ليست لهم قلوبٌ حافظةٌ ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لينتفع غيرهم، **فالأول** إشارة إلى العلماء، **والثاني** إلى النقلة، **والثالث** إلى من لا علم له. فالرسول ﷺ شبه في هذا الحديث ما جاء به من الدين بالغيث العام الذي يأتي الناس في وقت حاجتهم إليه، وكذلك كان الناس قبل

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 79).

مبعثه ﷺ، فكما أنَّ الغيث يحيي البلد الميت، فكذلك علوم الدين تحيي القلوب الميتة، ثم شبَّه السامعين له بالأراضي المختلفة التي ينزل بها الغيث، ومعنى الهدى: الدلالة الموصلة للقصد، والعلم هو المدلول، والمراد به هنا: الأحكام الشرعية، ويحتمل أن يراد بالهدى العام نفسه فيكون من عطف المرادف وهما كلمتان بمعنى واحد، ومعنى الغيث: المطر الذي يغيث الناس لمجيئه عند شدة الحاجة إليه، وجملة «فكان منها» في محل نصب حال بتقدير «قد» والضمير في «منها» يعود إلى الأرض، والنقية هي الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ وهو النبات اليابس والرطب، والعشب وهو الرطب منه والأجادب جمع جدب بفتح الدال أو جديب من الجدب وهو القحط، والأرض الجدبة: هي التي لا تشرب ماء ولا تنبت، ومفعول شربوا: الماء وسقوا دوابهم، وزرعوا أرضاً وأما الثالثة: وهو القيعان: فهي الأرض المستوية أو السبخة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فالعالم العامل المعلم كالأرض الطيبة تشرب الماء، فتنتفع في نفسها وتنبت فتنفع غيرها وهذا هو النوع الأول، وأما الثاني: فهو الجامع للعلم الذي يستغرق زمانه فيه الذي يعلم غيره ولكنه لم يعمل بنوافله، أو لم يتفقه فيها جمع فهو كالأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسه لتكبره وعدم التفاته، وهو الذي دخل في دين الله ولم يسمع العلم أو سمعه ولم يعمل به ولم يعلمه، فهو كالأرض السبخة التي لا تقبل الماء وتفسده على غيره، ويحتمل أن يكون النوع الثالث إشارة إلى من لم يدخل في الدين أصلاً بأن يكون بلغه فكفر به، وهو كالأرض الصماء الملساء التي يمر عليها الماء فلا تنتفع به، والنوع الثاني الذي شبهه بالأرض التي يستقر عليها الماء لنفع الناس هو المشار إليه بقوله ﷺ في الحديث الآخر: «**نضر الله امرءاً سمع مقالتي فأداها كما سمعها**»[1].

وتبين من أقسام الناس قسمان:

أحدهما: الذي انتفع بالعلم في نفسه ولم يعلمه غيره.

والثاني: من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره. قال العلماء: الأول داخلٌ في القسم الأول من الناس؛ لأنَّ النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه، وكذلك ما

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2658)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 232)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 4/80).

تنبته الأرض، فمنه ما ينتفع الناس به ومنه ما يصير هشيماً، وأما الثاني: فإن كان أدّى الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في النوع الثاني، وإن ترك الفرائض فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه، ولعله يدخل في عموم من لم يرفع بذلك رأساً.

ما يؤخذ من الحديث:

1 ـ الدعوة إلى التفقه في الدين، وإلى العمل بما يعلم الإنسان وإلى تعليم الغير، فالعالم يحب العمل به وتعليمه للغير، تلك هي المرتبة العليا للعلماء والعاملين المعلمين.

2 ـ وإن الناس حيال العلم أنواعٌ: منهم من يعلم ويعمل ويعلّم، ومنهم من يحفظ ولا يستنبط ويستخرج الأحكام، ومن الناس من لا علم له ولا حفظ.

3 ـ إن خير الناس وأنفعهم هو العالِم المعلّم.

obeikandl.com

وفد عبد القيس

قال البخاري: حدثنا علي بن الجعفر قال: أخبرنا شعبة: عن أبي جمرة قال: كنت أقعد مع ابن عباس: يجلسني على سريره فقال: أقم عندي حتى أجعل لك سهماً من مالي. فأقمت معه شهرين ثم قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «**من القوم**»، أو «**من الوفد؟**»

قالوا: ربيعة، قال: «**مرحباً بالقوم، أو بالوفد، غير خزايا ولا ندامى**» فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة.

وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع:

أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس**»[1].

ونهاهم عن أربع: الحنتم[2] والدباء[3] والنقير[4] والمزفت وربما قال: المقير[5]، وقال: «**احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم**»[6].

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 53).

(2) الحنتم: جرار خضر.

(3) الدباء: القرع اليابس أي: الوعاء منه.

(4) النقير: جذع ينقر وسطه.

(5) المقير: المطلي بالقار وهو الزفت.

(6) أخرجه البخاري في (الحديث: 523) و(الحديث: 1398)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 115)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 3692)، و(الحديث: 4677)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1599)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 5046).

لقد حقق الله تعالى النصر والفتح للدعوة الإسلامية، بعد جهادٍ طويل، جاهد فيه رسول الله ﷺ وجاهد أصحابه والمسلمون خير جهاد، فدعوا للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاهدوا في الله حق جهاده، بالنفس وبالمال وبالدعوة والكلمة، حتى تم النصر والفتح من الله العزيز الحكيم.

ولما تم فتح مكة، وفرغ رسول الله ﷺ من تبوك وأسلمت ثقيف، ضربت إليه وفود العرب من كل مكان، قال ابن إسحاق: حدثني أبو عبيدة أنَّ ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى: سنة الوفود حيث وفد على رسول الله ﷺ وفودٌ كثيرة، يتعلمون منه ويأخذون عنه، ويدخلون في دين الله أفواجاً.

ومن هذه الوفود: وفد عبد القيس، وكانت مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق. ووفد عبد القيس هؤلاء تقدموا قبائلهم للمهاجرة إلى رسول الله ﷺ وكانوا أربعة عشر راكباً الأشج العصري رئيسهم.. وهو المنذر بن عائذ، ومنهم: منقذ بن حيان.. وروى ابن منده من طريق هود العصري عن جده لأمه قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه: إذ قال لهم: «**سيطلع لكم من هذا الوجه ركبٌ هم خير أهل المشرق**»[1] فقام عمر فلقي ثلاثة عشر راكباً.. فيجمع بين هذه الرواية والسابقة بأن يكون أحد المذكورين غير راكب أو مرتدفاً، وأما ما رواه الدلابي وغيره من طريق أبي خيرة الصباحي قال: كنت في الوفد الذي أتوا رسول الله ﷺ من وفد عبد القيس وكنا أربعين رجلاً... فيجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى، بأن الثلاثة عشر كانوا رؤوس الوفد، ولهذا كانوا ركباناً، وكان الباقون أتباعاً.

أما عن سبب وفودهم: فهو أن منقذ بن حيان أحد بني غنم بن وديعة. كان متجره إلى يثرب في الجاهلية، فشخص إلى يثرب، بملاحف وتمر من هجر، بعد هجرة النبي ﷺ فبينما منقذ بن حيان قاعد، إذ مر به النبي ﷺ فنهض منقذ إليه، فقال النبي ﷺ «**أمنقذ بن حيان كيف جميع هيئتك وقومك؟**» ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل يسميهم بأسمائهم، فأسلم منقذ وتعلم سورة «الفاتحة» «واقرأ باسم ربك». ثم رحل قبل هجر، فكتب النبي ﷺ معه إلى جماعة عبد القيس كتاباً، فذهب به، وكتمه أياماً، ثم اطلعت عليه امرأته، وهي بنت المنذر بن عائذ، والمنذر هو الأشج، سماه رسول الله ﷺ

(1) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (الحديث: 8/ 85).

به لأثر كان في وجهه.. وكان منقذ ﷺ يصلي ويقرأ فأنكرت امرأته ذلك، فذكرتها لأبيها المنذر فقالت: أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب، إنه يغسل أطرافه ويستقبل الجهة، تعني: القبلة. فيحني ظهره مرة، ويضع جبينه مرة، ذلك ديدنه منذ قدم، فتلاقيا، فتجاريا ذلك، فوقع الإسلام في قلبه، ثم سار الأشج إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه عليهم فوقع الإسلام في قلوبهم وأجمعوا على السير إلى رسول الله ﷺ، فسار الوفد فلما دنوا إلى المدينة، قال النبي ﷺ لجلسائه: «**أتاكم وفد عبد القيس، خير أهل المشرق، وفيهم الأشج العصري غير تاكثين ولا مبدلين ولا مرتأبين**» فلما أتوا النبي ﷺ قال: «**من القوم - أو - من الوفد؟**» قالوا: ربيعة، قال: «**مرحباً بالقوم - أو - بالوفد، غير خزايا ولا ندامى**».. أي: أنهم لا يصيبهم الخزي فقد أسلموا طوعاً من غير حرب أو سبي يخزيهم ويفضحهم وإذا كان هذا في الدنيا، فإنهم في الآخرة لا تلحقهم الندامة ولا الحسرة، وفي هذا القول النبوي الحكيم بشرى لهم بالخير العاجل والآجل؛ لأن الندامة إنما تكون في العاقبة، فإذا انتفت ثبت ضدها، ثم وضحوا لرسول الله ﷺ موقفهم، وأنهم لا يستطيعون الوصول إليه إلا في شهرٍ حرام من الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وذلك خوفاً من أعدائهم الكفار، وفي رواية الإمام مسلم: وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا في الشهر الحرام فمرنا بأمرٍ نعمل به وندعو إليه مَنْ وراءنا، وكان أعداؤهم لا يقاتلونهم في هذه الأشهر، كما كانت عادة العرب من تعظيم الأشهر الحرم، وامتناعهم من القتال فيها، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، وأمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من الغنم الخمس**»، ولكننا إذا نظرنا إلى الأمور التي أمر بها وجدناها خمساً لا أربعاً، وأظهر ما أجيب به عن ذلك أنه أمرهم بالأربع التي وعدهم بها ثم زادهم خامسة وهي: أداء الخمس؛ لأنهم كانوا مجاورين لكفار مضر فكانوا أهل جهاد وغنائم. وقيل: إنه لم يذكر الحج في هذا الحديث، لكونه لم يكن نزل فرضه. ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت، وربما قال: المقير.. أما الدباء: فهو القرع اليابس، أي: الوعاء منه. وأما الحنتم فأقوى الآراء فيه أنه: جرار خضر، وأما النقير: فهو جذعٌ ينقر وسطه وأما المقير: فهو المطلي بالقار وهو الزفت، والمراد: النهي عن الانتباذ في هذه الأربعة، بأن يجعل في الماء حبات من تمر أو زبيب

ونحوهما ليحلو ويشرب، وخصت هذه بالنهي؛ لأنه يسرع إليها الإسكار فيها، فيصير حراماً نجساً وتبطل ماليته.. وجاء في بعض الروايات بيان ما يترتب عليه من الإسكار، وما يترتب على الإسكار من المفاسد قالوا: يا نبي الله، ما علمك بالنقير؟ قال: «**بلى جذعٌ تنقرونه فتقذفون فيه من القعيلماء**». قال سعيد: أو قال: «**من التمر ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف** قال: **وفي القوم رجلٌ أصابته جراحة كذلك**»[1]، قال: وكنت أخبئها حياءً من رسول الله ﷺ.

ومعلومٌ أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يستوعب لهم جميع الأوامر وجميع المنهيات، وذلك لأنهم سألوه أن يخبرهم بما يدخلون به الجنة، فاقتصر لهم على ما يمكنهم فعله في الحال ولم يقصد إعلامهم بجميع الأحكام التي تجب عليهم فعلاً وتركاً. واقتصر في المنهيات على الانتباذ في الأوعية مع أنَّ في المنهيات ما هو أشد في التحريم من الانتباذ، لكن اقتصر عليها لكثرة تعاطيهم لها، ومن هذه القصة يستنبط:

أنَّ الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل، ويستنبط وجوب أداء الخمس من الغنيمة وأنه من الإيمان، وفي القصة ـ كذلك ـ: النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية، قال العلامة ابن القيم: وهل تحريمه باقٍ أو منسوخ؟ على قولين: وهما روايتان عن أحمد والأكثرون على نسخه بالحديث الذي رواه مسلم[2]: «**كنت نهيتكم عن الأوعية فانتبذوا فيما بدا لكم ولا تشربوا مسكراً**» ومن قال بأحكام أحاديث النهي وأنها غير منسوخة قال: هي أحاديثٌ تكاد تبلغ التواتر، في تعددها، وكثرة طرقها وحديث الإباحة فرد فلا يبلغ مقاومتها، وسر المسألة: أن النهي عن الأوعية المذكورة من باب سد الذرائع، إذ الشراب يسرع إليه الإسكار فيها.

وفي القصة مدح صفتي الحلم والأناة، وأنَّ الله يحبهما وضدهما الطيش والعجلة، وهما خلقان مذمومان مفسدان للأخلاق والأعمال، واستنباط مدح الحلم

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 118).
(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 5175).

والاناة مأخوذٌ من بعض الروايات الأخرى، فعند مسلم:

وقال نبي الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**»[1] وسبب قول النبي ﷺ ذلك له: ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة، بادروا إلى النبي ﷺ، وأقام الأشج عند رحالهم، فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ فقربه النبي ﷺ وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبي ﷺ: «**تبايعون على أنفسكم وقومكم**» فقال القوم: نعم. فقال الأشج:

يا رسول الله، إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه، قال: «**صدقت، إن فيك خصلتين**» الحديث...

فالأناة على هذا: هي تربصه حتى نظر في مصالحة ولم يعجل، والحلم: هذا القول الذي قاله الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب.

ولا يخالف هذا ما روي أنه لما قال رسول الله ﷺ للأشج: «**إن فيك خصلتين**».. قال: يا رسول الله، كانا فيَّ أم حدثا، قال: «**بل قديم**»، قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما.

كما يستنبط من القصة: وفادة الرؤساء والأشراف إلى الأئمة عند الأمور المهمة، وتقديم الاعتذار بين يدي المسألة وفيها: بيان مهمات الإسلام وأركانه ما سوى الحج، وفيها استعانة العالم في تفهم الحاضرين والفهم عنهم ببعض أصحابه، كما فعله ابن عباس رضي الله عنهما، وفي القصة أيضاً: جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجاب ونحوه، وأما النهي عن المدح في الوجه، فهو في حق من يخاف عليه الفتنة.

وفي بعض روايات القصة من التفصيل ما يفيد وصف الأشج بالحلم والأناة: ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته - وهي التي يضع فيها ثيابه وزاده - ففتحها فأخرج (ثوبين) أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم أتى رواحلهم فعقلها وجمع متاع القوم،

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 116) و(الحديث: 117).

ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أشج، إن فيك خصلتين يحبهما الله ﷻ ورسوله الحلم والأناة**»، فقال: يا رسول الله، أنا تخلقتهما أو جبلني الله عليهما؟ فقال: «**بل الله جبلك عليهما**»[1]، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلّتين يحبهما الله ورسوله.

وهكذا نرى أنَّ هذه القصة قد اشتملت على العديد من الأحكام والحِكَم، والمأمورات والمنهيات، والتوجيهات السديدة التي تأخذ بأيدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم، وتجنبهم طرق الغواية والضلال، وهذه التوجيهات التي زودهم بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لها أهميتها وأثرها في بناء حياتهم. واستقامة أمرهم، ولهذا قال لهم رسول الله ﷺ: «**احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم**»[2].

إنها دعوة الإسلام الصادقة، التي تفيض بها قلوب المؤمنين المخلصين وتنطلق داعيةً إلى الله على هدى وبصيرة، لتفوز برضوان من الله وذلك هو الفوز العظيم.

كما اشتملت القصة على أنَّ الله تعالى يحب من عبده ما جبله عليه من خصال الخير ومكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، كالحلم والأناة، والشجاعة والذكاء، وغير ذلك لا سيما إذا سخَّر مواهبه في البرِّ والتقوى، والتعاون والمعروف والدعوة إلى الخير والإسلام.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في (الحديث: 4187).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 116).

obeikandl.com

الدعوة إلى الإسلام

محاورة هرقل لأبي سفيان ومساءلته له عن أحوال النبيّ ﷺ

روى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: حدثنا أبو اليمان، حدثنا الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عتبة بن مسعود: أن عبد الله بن عباس أخبره: أن أبا سفيان بن حرب أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً، قال: ادنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها؟ قال: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل

يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والعدل والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون**»[1]، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام، وكان ابن الناطور وصاحب إيلياء وهرقل أسقف على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حيث سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملك فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملكك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل: قال: اذهبوا

(1) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 8/ 239).

فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب ،فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برروميه وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يَرِم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبيّ ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبيّ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل.

اللغة:

(أبو سفيان): هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، (هرقل): هو ملك الروم، وهرقل: اسمه، وأما لقبه: فهو قيصر كما أن ملك الفرس يلقب بكسرى.

(في ركب من قريش): الركب: جمع راكب، والجملة في محل نصب حال، أي: أرسل إلى أبي سفيان حال كونه في جملة الركب، وكان عدد الركب ثلاثين رجلاً، وقيل: نحو من عشرين.

(.. في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان..): هي مدة الصلح بالحديبية، وكانت في سنة ست وكانت مدتها عشر سنين، وهذا أشهر الآراء، وقيل: كانت أربع سنين. (فأتوه..) الفاء عاطفة على محذوف وتقدير الكلام: أرسل في طلب اتيان الركب، فجاء موصول يطلب اثباتهم فأتوه.

(إيلياء): قيل: معناه بيت الله والمراد به: بيت المقدس (الترجمان): بفتح التاء وضم الجيم ويجوز ضم التاء اتباعاً فتح الجيم مع فتح التاء، والمعنى: أرسل إليه رسولاً أحضره والترجمان: هو الذي يعبر عن لغة بلغة أخرى وهو معرب وقيل: عربي (أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل؟) ضمن أقرب معنى أوصل فعداه بالباء، وفي رواية مسلم: (..من هذا الرجل) وهو على الأصل (أن يأثروا) أي: ينقلوا (ثم كان

أول ما سألني عنه أن قال..) أول: بالنصب على أنه خبر مقدم لكان، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسمها مؤخر والتقدير: «قوله..» ويجوز أن يرفع على أنه اسمها.

(فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟): في هذه العبارة إسقاط همزة الاستفهام، وفي التفسير: (أيتبعه أشراف الناس) والمراد بهم: أهل النخوة والتكبر منهم لا كل شريف (سخطة) بضم أوله وفتحه، وأخرج بهذا من ارتد مكرها أولاً لسخط لدين الإسلام؛ بل لرغبة في غيره كحظ نفساني، (الحرب بيننا وبينه سجال): وسجال بكسر السين، أي: نوب، والسجل: هو الدلو، والحرب اسم جلس، وقد جعل خبره اسم جمع، ومعنى (ينال): يصيب، فشبه المحاربين بالمستقيين يستقي هذا دلواً وهذا دلواً، وأشار أبو سفيان بذلك إلى ما وقع بينهم في غزوة بدر وغزوة أُحد.

(وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب): ومعنى البشاشة: انشراح الصدر واللطف بالشيء عند قدومه والفرح به، يقال: بش به وتبشبش، وقد روي بنصب بشاشته على أنها مفعول به، وروي بشاشته القلوب على أن بشاشته فاعل والقلوب مفعول به. (أخلص) أي: أصل. (لنجشت) أي: تكلفت الوصول إليه.

(أما بعد): في «أما» معنى الشرط وتستعمل لتفصيل الكلام الذي يذكر غالباً، وترد مستأنفة لا للتفصيل كما هنا، ولفظ «بعد» مبني على الضم؛ لأنه مقطوع عن الإضافة ولو أضيف لفتح. (دعاية الإسلام) أي: الكلمة الداعية إلى الإسلام وهي الشهادتان. (أسلم تسلم يؤتك) تسلم: مجزوم في جواب الأمر، ويؤتك جواب ثان للأمر، وفي قوله تسلم نوع من البديع وهو الجناس الاشتقاقي. (فإن توليت) في هذه الجملة استعارة تبعية؛ لأن معنى «توليت»: أعرضت، وحقيقة التولي يكون بالوجه ثم استعمل مجازاً في الأعراض عن الشيء على سبيل الاستعارة، «الأريسيين» هم الفلاحون أو اليهود والنصاري أو الملوك.

(لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة): أمر: بفتح الهمزة وكسر الميم، أي: عظم، وأراد بابن أبي كبشة النبيّ ﷺ؛ لأن أبا كبشة أحد أجداده وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض قيل: هو جده لأمه وقيل: من قبل أبيه، وقيل: أبوه من الرضاعة واسمه: الحرث بن عبد العزى. (ملك بني الأصفر): هم الروم يقال: إن جدهم

روم بن عيص تزوج بنت ملك حبشة فجاء لون ولده بين البياض والسواد، فقيل له: الأصفر، وقيل: لأن جدته سارة زوج إبراهيم حلته بالذهب. (ابن الناطور): حارس البستان (صاحب إيلياء) بنصب صاحب على الاختصاص أو الحال أو يرفعه عن الصفة، أي: أميرها و(الأسقف والسقف) لفظ أعجمي، أي: رئيس دين النصارى، وقيل: عربي وهو الطويل في انحناء. (خبيث النفس) أي: رديء النفس وغير طيبها. (حزاء) بتشديد الزاي، أي: كامن. (رومية) بالتخفيف: مدينة معروفة للروم. (فلم يرم) بفتح الياء وكسر الراء، أي: لم يبرح. (والدسكرة) القصر الذي حوله بيوت. (فحاصوا) أي: نفروا.

المعنى:

هذا الحديث يمثل جانباً من منهج الدعوة إلى الإسلام، وهو إرسال الكتب إلى الملوك، ودعوتهم إلى الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، كما يمثل أيضاً جانباً آخر من علامات النبوة، وكيف يصل الفكر المستنير إلى الحق، ويعرف عن طريق الاستنتاج الصحيح أن صاحب هذه الدعوة مرسل من ربه.

فإن هرقل حين جاءه كتاب الرسول ﷺ قرأه، وأراد أن يصل إلى الحقيقة من أقوم طريق، فقال هرقل ـ كما في رواية مسلم ـ هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال أبو سفيان: فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا، فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال له: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبني فكذبوه.. وإنما أراد هرقل أن يسأل أقربهم نسباً بالرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي يكون أكثر معرفة بأحواله والاطلاع على شؤونه ظاهراً وباطناً أكثر من غيره، ولأن الأبعد لا يؤمن أن يقدح في نسبه بخلاف الأقرب. ثم أكد الأمر لأصحابه فقال لهم: إن كذبني فكذبوه، أي: لا تستحيوا منه، كما أنه جعل أصحابه خلفه، ليكون تكذيبهم له ـ إن كذب ـ أهون وأيسر ولئلا يستحيوا أن يواجهوه فإن مقابلة بالكذب وجهاً لوجه من الأمور الصعبة.

وقال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عليه، وفي هذا القول دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب، أخذاً عن الشرع السابق أو بالعرف.

وأول سؤال هو: كيف نسبه فيكم؟ أي: ما حال نسبه أهو شريف أم لا؟ فكان الجواب: هو فينا ذو نسب، والتنوين فيه للتعظيم وفي رواية مسلم: كيف حسبه فيكم؟ فقال: هو فينا ذو حسب، والمعنى واحد.

والسؤال الثاني: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ أي: من قريش أو العرب، والمراد: من قومكم، فأجاب بقوله: لا.

والسؤال الثالث: فهل كان من آبائه من ملك؟ وفي رواية مسلم: فهل كان آبائه ملك؟ وقد روى هذا اللفظ على وجهين: **أحدهما**: (من) بكسر الميم و«ملك» بفتح الميم وكسر اللام. **والثاني**: «مَنْ» بفتح الميم و«ملك» بفتحها على أنه فعل ماض وكلاهما صحيح.

والسؤال الرابع: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فأجاب بقوله: ضعفاؤهم وفي رواية بإثبات همزة الاستفهام أيتبعه أشراف الناس؟ والمراد بهم: أهل النخوة والتكبر منهم لا كل شريف حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر.

والسؤال الخامس: أيزيدون أم ينقصون؟ فأجاب بقوله: بل يزيدون.

والسؤال السادس: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فأجاب بقوله: لا، والمراد بالسخط: كراهة الشيء وعدم الرضا به.

والسؤال السابع: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فأجاب بقوله: لا، والمراد بالكذب: هو الكذب على الناس وإنما عدل عن السؤال عن نفس الكذب إلى السؤال عن التهمة، تقريراً لهم على صدقه، كما قال الحافظ ابن حجر؛ لأن التهمة إذا انتفت انتفى سببها ولهذا عقبه بالسؤال عن الغدر، اهـ.

والسؤال الثامن: فهل يغدر؟ فأجاب بقوله: لا... والغدر: هو ترك الوفاء بالعهد، ثم قال: ونحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكني كلمة

أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، والمراد بالمدة التي أشار إليها أبو سفيان هي مدة الهدنة والصلح الذي حصل في الحديبية. ومعنى قوله: ولم يمكني كلمة إلخ... أي: أنه لم يستطع أن ينتقص من قدر النبيّ ﷺ والتنقيص نسبي، فقد كان رسول الله ﷺ معروفاً بأنه لا يغدر، ولكن لما كان الأمر مغيباً؛ لأنه مستقبل أمن أبو سفيان أن ينسب إليه الكذب. وفي رواية أبي الأسود عن عروة مرسلاً خرج أبو سفيان إلى الشام فذكر الحديث إلى أن قال: فقال أبو سفيان: هو ساحر كذاب، فقال هرقل: إني لا أريد شتمه ولكن كيف نسبه؟ إلى أن قال: فهل يغدر إذا عاهد قال: لا، إلا أن يغدر في هدنته هذه، فقال: وما يخاف من هذه، فقال: إن قومي أمدوا حلفاءهم على حلفائه، قال: إن كنت بدأتم فأنتم أغدر.

والسؤال التاسع: فهل قاتلتموه؟ فأجاب بقوله: نعم.

والسؤال العاشر: ماذا يأمركم؟ فأجاب بقوله: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وبعد أن أدار هرقل هذه المحاورة الدقيقة، وانتهى من الأسئلة المحكمة، والإجابة التي أفهمها وعرف جوانب ما تدل عليه، كون صورة استنتجها بمنطقه السليم، مع أنه لم تكن له معرفة بالرسول ﷺ من قبل، ومع هذا فقد كانت صورة صحيحة، رتب نتائجها على مقدمات سليمة، هي تلك التي تحدثنا عنها في الأسئلة السابقة أما النتائج التي توصل إليها هرقل فهي ما يأتي:

لقد قال هرقل للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، والمعنى: أن الرسل عليهم السلام، يبعثون في أفضل أنسابهم وأشرفها، والحكمة في ذلك أنه أبعد من انتحال الباطل، فالإنسان الذي يتمتع بالشرف وأصالة المعدن ـ غالباً ـ لا يميل إلى انتحال الباطل وليس في حاجة إليه، كما أنه يكون أقرب إلى أقوال الناس له. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: الظاهر أن أخبار هرقل بذلك بالجزم كان عن العلم المقرر عنده في الكتب السالفة، هذا هو الاستنتاج الأول.

وأما الاستنتاج الثاني: وهو أنه لم يقل هذا القول أحد قط قبله فإنه قد استنتج لو

كان أحد قاله قبله لكان متأسياً به. وإنما لم يقل هرقل: «فقلت»، إلا في هذا المرتع وفي قوله: «هل كان من آبائه من ملك»؛ لأن هذين المقامين مقام فكر ونظر بخلاف غيرهما من الأسئلة فإنهما مقام نقل.

كما استنتج من أنه ليس في آبائه من ملك بأن هذا دليل على أنه لا يطلب ملكاً، ولا يمكن أن تحوم حوله شبهة، فلو كان من آبائه من ملك لأمكن أن يقال: إنه رجل يطلب ملك أبيه.

كما استنتج من أنه غير متهم بالكذب قبل هذا الأمر أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، كيف؟ وهو المعروف بالصادق الأمين، وكانت سمات الصدق وغيرها من الفضائل قد عرف بها النبيّ عليه الصلاة والسلام قبل بعثته وبعدها، ولازمته هذه الفضائل على مر أدوار الحياة، وتظهر سمة صدقه ﷺ عندما دعا قريشاً إلى الإسلام وغيرهم بنبوته قائلاً: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقوني؟**»، فقالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط[1].

كما استنتج صدق الرسول ﷺ عن طريق اتباع الضعفاء له؛ لأنهم أتباع الرسل، فإن أتباع الرسل ـ في الغالب ـ أهل الاستكانة والتواضع لا أهل الاستكبار والعناد الذين يصرون على الباطل ويتحججون به بغياً وحداً، أما الضعفاء فلا يأنفون بل ينقادون إلى الحق ويتبعونه.

ثم استنتج أيضاً من زيادة الأتباع أن هذا هو أمر الإيمان حين يتم بعقيدته وعبادته وأخلاقه، وسائر شعائره من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك، ولذا نزل في آخر سني النبيّ ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وأما استنتاجه بالسؤال عن الردة، فلأن من دخل على بصيرة وهدى في الدين لا يرجع عنه بعد أن ذاق حلاوته وخالطت بشاشته قلبه، هذا بخلاف من دخل في الباطل. وإن الذين يدخلون الإسلام ويستشعرون حلاوته لا يتزعزعون ولا ينحرفون

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 307).

عنه مهما كان حولهم من اضطهاد ومهما نزل بهم من عذاب، وهذا بلال كم كان يقاسي ما يقاسي في الصحراء المحرقة والعذاب الأليم فما كان يزيد عن قوله: «أحد، أحد».

كما كان استنتاجه أيضاً من عدم الغدر بأنه رسول إذ أن الرسل لا تغدر؛ لأنهم لا يطلبون حظاً من حظوظ الحياة الدنيا التي لا يبالي طلابها بالغدر، وهذا بخلاف أهل الآخرة وطلابها فإنهم أوفياء أمناء لا يخونون ولا يغدرون. ولم يعرج هرقل على ما دسه أبو سفيان، قال في الفتح: وقد كان معروفاً عندهم بالاستقراء من عادته أنه لا يغدر، ولما كان الأمر مغيباً؛ لأنه مستقبل أمن أبو سفيان أن ينسب في ذلك إلى الكذب، ولهذا أورده بالتردد ومن ثم لم يعرج هرقل على عدا الغدر منه اهـ.

ثم كان الاستنتاجان الأخيران من السؤال عن قتالهم له وكيفيته، وأنهم قاتلوه وأن الحرب بينهم وبينه سجال وهذا شأن الرسل ﷺ تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وإنما يبتليهم الله تعالى بذلك ليعظم أجرهم بكثرة صبرهم وما بذلوه من أقصى ما في وسعهم في طاعة الله سبحانه وتعالى.

وأما ما أمرهم به: فهو أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأما ما ينهاهم عنه: فينهاهم عن عبادة الأوثان، ويأمرهم بالصلاة والصدق والعفاف، قال المازني: هذه الأشياء التي سأل عنها هرقل ليست قاطعة على النبوة إلا أنه يحتمل أنها كانت عنده علامات على هذا النبيّ بعينه؛ لأنه قال بعد ذلك: قد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم وما أورده احتمالاً.

ويصل هرقل إلى النتيجة الأخيرة، والنظرة البعيدة لمنزلة هذا الرسول وما لدعوته من مستقبل عظيم هذه النتيجة تتلخص في قوله: «فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه ـ أي: أصل إليه ـ لتجشمت لقاءه ـ أي: تكلفت الوصول إليه، وهذا يدل على أنه كان يتحقق أنه لا يسلم من القتل إن هاجر إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام ـ لقد أبدى كل استعداده ـ لو أمكنه الوصول إلى النبيّ ﷺ ـ لارتكب المشقة، وتحمل كل عناء في سبيل ذلك، إلا أنه قد خاف الروم على نفسه. وفي قوله: «.. لغسلت

عن قدميه» إظهار للعبودية والخدمة، وأنه لا يطلب منصباً ولا جاهاً وإنما يطلب ما يحصل له من البركة.

والمراد بقوله: «فسيملك موضع قدمي هاتين»: بيت المقدس وكنى بقوله: «موضع قدمي» عنه؛ لأنه موضع استقراره، أو أنه كناية عن الشام كله.

وهنا نصل إلى درجة المعرفة التي بلغها هرقل، لقد كان يعلم الحقيقة، ويعلم أن النبيّ مرسل من ربه ولكنه خاف على نفسه وعلى ملكه. وهل هذا عذر يمكن أن يكون؟ نقول: لا، إنه لا ينهض عذراً فقد عرف الرجل صدق الرسول ﷺ، إلا أنه رغب في استمرار الرياسة وخاف على الملك فآثر ذلك على الإسلام، ولكن الرجل لو فطن لقول الرسول ﷺ في الكتاب: «**أسلم تسلم**»، ووعى ما يترتب على الإسلام من السلامة دنيا وآخرة لكان سالماً من كل ما يخافه، ولكن الهدى هدى الله.

وفي رواية: «ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي وما زالت عنه الرياسة».

وقد كان الكتاب الذي حمله الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي في سنة سبع في المحرم ودفعه دحية إلى عظيم «بصرى» وهي مدينة بين المدينة ودمشق، وقيل: هي خوران، وعظيمها: هو الحارث بن أبي شمر الغساني وفي هرقل بعظيم الروم: إشارة إلى عدم الاعتراف بهذا الملك؛ لأنه معزول يحكم الإسلام ولكنه لم يخله من إكرام لمصلحة التألف.

ولا يعترض على ما في الكتاب من قوله: «سلامٌ على من اتبع الهدى» ببدأ الكافر بالسلام؟ فإن المعنى سلم من عذاب الله من أسلم، وليس المراد منه التحية، ومذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يبتدىء كافراً بالسلام، وأجازه كثيرون من السلف، ولكن قال الإمام النووي ـ بالنسبة للجواز ـ وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة في النهي عن ذلك، وهناك رأي آخر يقول بجواز بدء الكافر بالسلام إذا كان ذلك للاستئلاف أو لحاجة إليه أو نحو ذلك. وقوله: «أما بعد» «أما» تستعمل لتفصيل ما يذكر بعدها غالباً، وللتفصيل والتقرير وترد مستأنفة لا لتفصيل كالتي هنا، ولفظة «بعد» مبنية على الضم وتفتح إذا أضيفت لكنها قطعت عن الإضافة فبنيت على الضم.

ولماذا يؤتى أجره مرتين، كما جاء في الحديث؟ الجواب على هذا هو أن من آمن بنبيه ثم آمن بالرسول ﷺ كان له أجران أو أن ذلك من جهة أن إسلامه سيكون سبباً في إسلام أتباعه، ولذا فإنه إن أعرض كان عليه إثمهم مع إثمه «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين**»، فإن الأتباع إذا لم يسلموا تقليداً له كان عليه إثمهم وإثمه من باب أولى ولا يتعارض هذا مع قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]؛ لأن الفاعل الذي يتسبب في السيئات يتحمل الوزر من جهتين جهة فعله وجهة تسببه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»[1]، رواه مسلم.

وكان ابن الناطور ـ ومعناه حارس البستان ـ صاحب إيلياء أي: أميرها، وهرقل أسقف على نصارى الشام، والأسقف لفظ أعجمي معناه: رئيس دين النصارى، وقيل: عربي وهو الطويل في انحناء، كان هرقل قد أصبح رديء النفس فاستنكر بعض بطارقته ـ وهم خواص الدولة ـ هيئته وكان هرقل حزاء ـ أي كاهناً ـ ينظر في النجوم، وقيل: إن الحزاء: هو الذي ينظر في الأعضاء وفي الوجه فيحكم على الإنسان بطريق الفراسة.

ولكن كيف ساغ للبخاري إيراد هذا الخبر الذي يشعر بتقوية أمر المنجمين؟ نقول: إنه أراد توضيح جميع الأوجه وسائر الدلالات التي أشارت إلى ذلك الأمر وأنها قد وردت من طرق متنوعة، وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم ومن محق أو مبطل ومن إنس أو جن وهذا أقوى ما يشير إليه عالم، وبينما القوم على أمرهم في مشورتهم، وهرقل يقول لهم: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر.. إلخ بينما هم على ذلك أتى هرقل برسول من قبل ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ.

قال الحافظ في الفتح: وأنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي قال: حدثني سيف الدين فليح المنصوري قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة،

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 6745).

فقبلها وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت فقال لي: لأتحفنك بتحفة سنية، فأخرج لي صندوقاً مصحفاً بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصاري ليدوم الملك فينا اهـ.

وأخرج أبو عبيد في كتاب الأموال من مرسل عمير بن إسحاق قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه فقال رسول الله ﷺ: **«أما هؤلاء فيمزقون وأما هؤلاء فتكون لهم بقية»**.

ما يؤخذ من الحديث:

ويؤخذ من هذا الحديث أمور كثيرة منها:

1 ـ صدق الرسول ﷺ وكثرة العلامات التي دلت عليه في الكتب السابقة كالتوراة.

والعلامات المذكورة هنا منها ما يتعلق بشخص الرسول ﷺ ومنها ما يتعلق بشأن من اتبعه، ومنها ما يتعلق بشأن دعوته.

2 ـ من السهل على كل عاقل ممن لم يؤمن بالرسول أن ينظر إلى تلك الصورة المعتدلة التي كونها هرقل عن شخصية الرسول ﷺ، ويستطيع أن يزن بعقله وفكره أمر الرسول والرسالة فيعتنق الإسلام.

3 ـ دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام، وما يجب على أئمة المسلمين وولاة الأمور في شتى أقطار العالم من الدعوة إلى الإسلام والعمل على انتشاره وتبليغ تعاليمه.

4 ـ وجوب دعوة الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم، وأن قتال الكفار قبل دعوتهم حرام إذا لم تكن قد بلغتهم الدعوة، وإن بلغت فالدعاء يكون مستحباً.

5 ـ وجوب العمل بخبر الواحد، حيث إنه بعث الكتاب مع دحية.

6 ـ استحباب أن يصدّر الكتاب بـ«بسم الله الرحمٰن الرحيم» وإن كان مرسلاً إلى كافر.

7 ـ إن من اهتدى وتسبب في هداية غيره آتاه الله أجره مرتين، ومن ضل وتسبب في إضلال غيره كان عليه إثمه وإثم من تبعه.

8 ـ من أدرك نبينا ﷺ من أهل الكتاب فآمن به كان له أجران.

obeikandl.com

البر والإثم

روى مسلم[1] بسنده عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**».

في هذا الحديث يرسي رسول الله ﷺ قاعدة تربوية حكيمة، تكشف عن الفطرة النقية في النفس الإنسانية وعن معرفة الحق والخير، وتقبله في طمأنينة، وعن النفور من الباطل والشر وعدم تقبل شيء من ذلك، بل إنَّ الإنسان يضيق بالإثم، فوضع الحديث أعمال الإنسان، في ميزانٍ عادلٍ توزن به صلاحيتها، ومعرفٌ به جانب الخير من الشر، فإن كان العمل مما تطمئن له النفس المؤمنة الصالحة، ولا يخشى الإنسان من ظهوره للناس، بل إنه يرضاه ويرضاه ذوو الفطر المعتد له فهو البر.

وإن كان مما يحيك في النفس، ويبعث على الريبة، ويخشى صاحبه اطلاع غيره عليه، فهو الإثم الذي ينبغي البعد عنه.

أما البر: فيكون بمعنى: الصلة، وبمعنى: اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى: الطاعة، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق كما قال الإمام النووي، ولذا فقد جاء التعبير بالبر عن كل طاعةٍ وخير يجمع صحة العقيدة، والتعاون في العشرة، وتهذيب النفس في سائر العبادات والمعاملات والعلاقات وذلك في قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: 177].

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 6463).

فَصِحَّة العقيدة تتمثَّل في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والتعاون في المعاشرة: بإتيان المال ـ مع حبه ـ لأصحاب الحقوق والمحتاجين. وتهذيب النفس في سائر المعاملات والعلاقات: بالصلاة والزكاة والوفاء بالعهد والصبر في كل الأحوال وفي أوقات الشدائد وعند لقاء العدو.

ولقد جردت الآية السابقة البر من المفهوم الشكلي الذي تبادر عند البعض حيث كان اليهود عند تحويل القبلة إلى الكعبة قد أنكروا هذا التحويل: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فرد الله عليهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142].

كما صحح القرآن أيضاً مفهوم البر من معنى شكلي آخر، ذلك أن بعض الناس كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، بل من نقبٍ أو فرجةٍ وراء البيت ويعدون ذلك براً فبين الله تعالى لهم أنَّ ذلك ليس ببر، وإنما البر أن يتقي المسلم المحارم والشهوات قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189].

وقد وجه الله تعالى عباده إلى طريق للبرّ الذي هو كمال الخير وبه ينالون بر الله ورحمته، ورضاه وجنته، وذلك ببذل ما يحبه الإنسان من المال والنفس والجاه، فقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: 92].

وأما الإثم: فقد عرّفه الرسول ﷺ في هذا الحديث الذي يعتبر من جوامع كلمه بأنه: «**ما حاك في صدرك**»[1] أي: تحرك فيه وتردد مخافة أن يكون ذنباً، فالإثم مقابل للبر، فالبر يطمئن له الإنسان ويستريح لفعله، والإثم لا يطمئن له الإنسان بل يكون في قلقٍ منه.

وفيما رواه الإمام أحمد[2] عن وابصة بن سعيد ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» قلت: نعم. قال: «**استفت قلبك البر ما اطمأنت**

(1) أخرجه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 8/ 138)، وأخرجه **الهيثمي** في «مجمع الزوائد» (الحديث: 7/ 298).
(2) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 227)

إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك».

والعبارة الأخيرة: «**وإن أفتاك** . . .» معناها: وإن حاولوا أن يجعلوا لك فيه رخصة، أو رأوا مثلاً لك فيه رخصة، قال الإمام الغزالي: «فالمفتي يفتي بالظن، وعلى المستفتي أن يستفتي قلبه، فإن حاك في صدره شيء فهو الإثم بينه وبين الله، فلا ينجيه في الآخرة فتوى المفتي، فإنه يفتي بالظاهر والله يتولى السرائر».

وقد قال رجلٌ: يا رسول الله، ما الإثم؟ قال: «**إذا حاك في صدرك شيء فدعه**»[1].

وينبغي أن ننبه هنا إلى القلب الذي يطمئن للبرّ وينفر من الإثم أو يتأذى منه ويضيق به، إنما هو القلب الذي تجرد من الدنايا والأغراض، وتطهر من الأهواء والأمراض الباطنية فكان صالحاً كما في الحديث: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[2].

فلقد ترى من الناس من يطمئن للإثم ويلذ لوقوعه ولا يرى معه حرجاً، فليس هذا ممن ينطبق عليه الحديث.

بل إنَّ هناك من الأمور ما قد ينشرح له صدر البعض بينما هو من الإثم، وهناك من الأمور ما يضيق به صدر البعض بينما هو من الطاعة، وحينئذٍ فلا يكون المرجع في هذا ميل القلب أو عدمه، بل إنَّ المرجع حينئذٍ إنما في الرجوع إلى ما يوجد من نص شرعي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36].

ولطالما نادى القرآن الكريم بالبر والتقوى والتعاون على أساسهما، وحذر من

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 251) و(الحديث: 5/ 252)، وأخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 1/ 14).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 52) و(الحديث: 2051)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 4070)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 3329) و(الحديث: 3330)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1205)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 4465)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3984).

الإثم والعدوان ومن التعاون عليهما، فقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2].

كما حذر الله سبحانه عباده المؤمنين من التناجي بالإثم والعدوان وأمرهم أن يتناجوا بالبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة: 9].

وإذا كان البر حسن الخلق، وضده الإثم، فما النتائج المترتبة على كلٍ منهما؟

إذا نظرنا إلى البر، أو إلى حسن الخلق، فإننا نجد من نتائجه في الدنيا الكثير والكثير، فالصدق ـ مثلاً ـ من حسن الخلق ومن البر ونتيجته في الدنيا الطمأنينة، طمأنينة الصادق إلى عمله وطمأنينة الناس إليه وثقتهم فيه كما في الحديث: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»[1]. والعفو ـ مثلاً ـ من البر أو حسن الخلق ومن نتائجه في الدنيا ما أخبر عنه القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: 34، 35].

وأما في الآخرة فيقول الرسول ﷺ: «**إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[2] ويقول:

«**ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإنَّ الله يبغض الفاحش البذيء**»[3].

وقد سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»[4].

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار قال: «**الفم والفرج**» ويضمن

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2518)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 5727)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 13).

(2) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4798)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 90).

(3) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4799)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2002).

(4) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (الحديث: 10/ 459).

الرسول ﷺ أعلى الجنة لمن حسن خلقه فيقول: «**أنا زعيم** ـ أي ضامن ـ **ببيتٍ في ربض الجنة** ـ أي حولها ـ **لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[1].

ما يؤخذ من الحديث:

1 ـ فضل البر والطاعة، وإنَّ علامة البر أن يطمئن له الإنسان ويستريح لفعله وأعظم دلائله حسن الخلق.

2 ـ النهي عن الإثم وإنَّ علامته ألا يطمئن له الإنسان، بل يكون في قلقٍ من فعله ويتردد فيه ويخشى أن يطلع عليه الناس.

3 ـ سؤال المسلمين رسولهم ﷺ عن أمور دينهم ودنياهم للوقوف على معالم الدين وتوضيح البر والإثم

(1) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4800).

obeikandl.com

من الوصايا الجامعة

عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمٰن معاذ بن جبل ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسن**»[1].

في هذا الحديث وصيةٌ جامعة، من وصايا الرسول ﷺ، من عمل بها سعد في الدنيا والآخرة، لأنها وصيةٌ تشتمل على سعادة الدنيا والآخرة، لأنها وصيةٌ تشتمل على الإنسان حقاً، وأية سعادة أعظم من تقوى الله سبحانه، وصدق القائل:

لست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

ولو أنَّ الناس وضعوا هذه الوصية نصب أعينهم، لسعدوا أفراداً وجماعات، وأحسوا برضى الله تعالى والطمأنينة والسكينة، وعاشوا سعداء ودعاء، مخلصين متحابين، وكيف لا وقد وثّقوا علاقاتهم بالله فاتقوه في السر والعلانية، وبيضوا صحائف أعمالهم، فأتبعوا السيئة الحسنة، وعامل بعضهم بعضاً معاملةً حسنةً، فانتشرت بينهم الفضائل واختفت من حياتهم الرذائل، فلم يعد فيهم من يخاف على حياته أو ماله أو عرضه، فالكل تحت راية التقوى، وفي ظلال مكارم الأخلاق، الكل آمنون مطمئنون.

أما التقوى، فمفهومها - بإيجاز - أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبٍ أو سخطٍ أو عقاب وقايةً تقيه فيؤدي الطاعات، ويجتنب المعاصي. والتقوى هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين، والسابقين واللاحقين قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 131].

والتقوى هي الطريق لمرضاة الله تعالى بها تكفر الذنوب ويكثر الأجر والعطاء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5]. كما أنها طريقةٌ للخلاص من كل همٍ وغمٍ وكربٍ وضيق، وبها يكثر الرزق ويتوالى على

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1987).

الإنسان من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2، 3]، وهي بوصف الحديث له ملازمة للمخلصين في السر وفي العلانية وفي كل زمانٍ ومكان، **«اتق الله حيثما كنت»**.

• لكن العبد إذا كان ملازماً لتقوى الله تعالى فقد يعتريه في بعض الأحيان اللمم، ويعترضه بعض التقصير فيترك بعض ما أمر به، أو يفعل بعض ما نهى عنه؛ لأنه بحكم كونه بشراً، فهو عرضة للخطأ مهما كان على درجةٍ من التقى والعفاف، وهنا يعالج الحديث هذا الجانب، ويسد هذا الخلل عند الإنسان، فيأمره الرسول ﷺ بأن يفعل ما يمحو به السيئة فيقول: **«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»**. إنَّ هذا طريق لعلاج الضعف النفسي الذي قد يوقع الإنسان في الخطأ، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك في القرآن الكريم حيث يقول:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ [هود: 114]. وقال سبحانه في وصف المؤمنين المتقين المستحقين للجنة: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ [آل عمران: 133-136]. ومما يدل على أن الحسنات تذهب السيئات، ما أرشد إليه رسول الله ﷺ من الصلاة وأثرها وتكررها في اليوم خمس مرات، في كل مرة تذهب ما كان قد علق بصاحبها من الخطايا فتطهره كما يطهر الماء البدن. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يومٍ خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟»** قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: **«فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»**[1]. ثم تتجه الوصية النبوية الحكيمة إلى معاملة

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 528) و(الحديث: 2051)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 1520)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 461)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 2868).

الناس: «**وخالق الناس بخلقٍ حسن**» والخلق الحسن به كمال إيمان المؤمن كما قال الرسول ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا**»[1]. ويبرز الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ في حديثٍ آخر ـ منزلة حسن الخلق وكيف أنه ينفع صاحبه يوم القيامة حيث يكون أثقل في ميزانه، وحيث ينال صاحبه به درجة الصائم القائم وفيما رواه الترمذي من حديث أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد من حسن الخلق وإنَّ صاحب الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**»[2]، ويرشد الرسول ﷺ إلى مكارم الأخلاق وأفضلها حتى تسير أمته في طريقها آمنة مطمئنة، فلا تقتصر في المعاملة الحسنة والخلق الحسن على من عاملها بذلك، بل على المسلم أن يتبع المكارم مع الناس وإن لم يتبعوها معه وأن يصل الناس وإن قطعوه، وأن يعطي وإن حرموه، وأن يعفو وإن ظلموه، فتلك أنبل الأخلاق وأسماها، فقد أخرج الطبراني من حديث علي أنَّ النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم على أكرم أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**»[3].

ما يؤخذ من الحديث:

1 ـ الأمر بتقوى الله تعالى في كل زمانٍ ومكان.

2 ـ الأمر بالزيادة من العمل الصالح والحسنات؛ لأنَّ الحسنات يذهبن السيئات.

3 ـ الأمر بالخلق الحسن.

4 ـ توجيه المسلم إلى توثيق علاقته بربه وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه.

5 ـ يستدل بالحديث على تكفير الحسنات للسيئات إذ إن أكثر العلماء على أنها الذنوب الصغائر، وأما الكبائر فلا بد لتكفيرها من التوبة إلى الله، وأستدلوا أيضاً بحديث: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما**

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4682)، وأخرجه الدارمي في «سننه» (الحديث: 2/ 323)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 1/ 3).

(2) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4799)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2003).

(3) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 19/ 155).

بينهم ما اجتنبت الكبائر»[1]، فهذا يدل على أن الكبائر لا تكفرها هذه العبادات.

وقد حكى ابن عطية في تفسيره في معنى هذا الحديث قولين:

أحدهما: عن جمهور أهل السنة، أن اجتناب الكبائر شرط لتكفير هذه الفرائض للصغائر، فإن لم يجتنب لم تكفر هذه الفرائض شيئاً بالكلية.

والثاني: أنها تكفر الصغائر مطلقاً ولا تكفر الكبائر إن وجدت، لكن يشترط التوبة من الصغائر وعدم الإصرار عليها.

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/72).

obeikandl.com

علامات الإسلام

عن عبد الله بن عمرو ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[1].

في هذا الحديث الشريف، يوضح رسول الله ﷺ بعض سمات الإنسان المسلم وعلاماته التي يستدل بها على إسلامه، وعلى كمال تمسكه بدينه فيكون أفضل الناس، حيث جمع بين حقوق الله سبحانه وتعالى وحقوق المسلمين، فإذا أحسن الإنسان المسلم معاملة إخوانه فأولى أن يحسن معاملة ربه، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

إنَّ من علامات الإسلام وسماته، مسالمة الناس، مسلمهم وغير مسلمهم أيضاً، ولكن الحديث خص المسلمين فقال ﷺ: «**من سلم المسلمون**»؛ لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيداً، ولأن الكفار بصدد أن يقاتلوا، وإن كان فيهم من يجب الكف عنه. كما أن الإتيان بجمع التذكير «المسلمون» إنما هو للتغليب، فإنَّ المسلمات يدخلن في ذلك، فلا بد أن يسلم المسلمون والمسلمات من لسانه ويده، ولكن خطاب الشارع في الأغلب الأعم يكون للرجال والنساء تبع لهم..

ونلاحظ أنَّ الحديث ركز على جارحتين اثنتين من جوارح الإنسان وهما: اللسان، واليد؛ فأما اللسان: فقد خصه بالذكر، لأنه المعبر عما في النفس، ولأن اللسان يمكنه أن يتناول به الماضين والموجودين والحادثين بعد، ولذا قدمه على اليد ولأن اللسان أيضاً أكثر في الأذى وحدوثه من اليد، وأسهل منها كذلك، ولذا كان رسول الله ﷺ يقول لحسان: «**اهج المشركين، فإنه أشق عليهم من رشق النبل**»[2] وقال الشاعر:

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 6484).

(2) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 4/ 45)، وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 10/ 238).

جراحات السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان

وأما اليد: فقد اقتصر عليها دون غيرها من الجوارح وذكرها بعد اللسان؛ لأن أكثر الأفعال وأغلبها تقع باليد.. وقد تشارك اليد اللسان عن طريق الكتابة ولها في هذا المجال أكثر الآثار خطورة، ولكن يستثنى من أعمال اليد شرعاً تعاطي الضرب بها في إقامة الحدود والتعزير على المستحق لذلك.

وأما المهاجر فهجرته ضربان: ظاهرة، وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء وما يدعو إليه الشيطان. والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن، وإنما خوطب المهاجرون بذلك لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم، بل عليهم أن يمتثلوا أوامر الله تعالى وشرعه، وليوضح أيضاً لمن لم يحظ بشرف الهجرة بأن حقيقة الهجرة تتمثل في ترك ما نهى الله تعالى عنه..

وفي حديثٍ آخر وضح الرسول ﷺ حرمة الإنسان المسلم وحرمة ماله وعرضه ودمه: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[1]، وجعل من علامات الإيمان انتشار الأمن في المحيط الإسلامي بحيث يأمن الناس بعضهم بعضاً على دمائهم وأموالهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[2].

كما جعل الإسلام من علامات المسلم أيضاً ألا يقحم نفسه فيما لا يعنيه، فقال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[3].

كل هذه دلائل تميز شخصية الإنسان المسلم والإسلام والسلام من مادة واحدة، والله تعالى هو السلام، ولذا كان السلام شعار الإسلام، وجوهر رسالته حتى يشيع الأمان، ويحيا المجتمع آمناً مطمئناً، سعيداً بروح الإسلام وتعاليمه وقيمه.

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 6487)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 3933) و(الحديث: 4213).
(2) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2627)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 5010).
(3) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2317)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 3976).